حب العرب في الأدب التركي

شاعر الترك الأعظم عبد الحق حامد، نموذجا

د. محمد حرب - مصر

إذا كان العرب قد أطلقوا على أحمد شوقي لقب أمير الشعراء العرب فقد أطلق الأتراك لقب الشاعر الأعظم على شاعرهم عبد الحق حامد. وشوقي وحامد، قمتان في الأدب الإسلامي. وكلاهما من أم شركسية - من الشعب الشركسي المسلم الباسل - وكلاهما استمتع بالقرب من القصر الحاكم في بلده. وكلاهما هاجم الإنجليز المحتلين فتعقبه الإنجليز. وكلاهما مجدد في أدب قومه.

ولد عبد الحق حامد بك في إستانبول عام ١٨٥٢ م ومات فيها عام ١٩٣٧م، وبين التاريخين عاش الشاعر التركي الأعظم حياة حافلة، وقد أثر في حياته وفي أدبه ثلاث مسائل هي: معرفته باللغات الفرنسية، والعربية والفارسية فضلا عن الشركية والتركية. وكذلك عمله في السلك الدبلوماسي والقنصلي العثماني، فمكث غير قليل في باريس ولندن وبروكسل وبومباي، وقد أثر كذلك في حياته وفي أدبه وفاة زوجته فاطمة هانم، وكانت ترافقه أثناء عمله قنصلا للدولة العثمانية في بومباي، ولم تتحمل جوها، فمرضت وسافر بها إلى إستانبول، لكنه اضطر إلى النزول في بيروت، وكان أخوه واليا عليها من قبل الدولة العثمانية، فاستراح وزوجته،لكنها ماتت في بيروت. وأحدث موتها في فكره وأدبه الشيء الكثير، ونظم في ذلك عمله الشهير.

« مقبر » التي ترجمها إلى العربية أستاذي إبراهيم صبري بك ابن شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي، عليهما رحمة الله، ونشرت هذه الترجمة في القاهرة في الربع الأخير من القرن العشرين الميلادي.

كان عبد الحق حامد، مقربا من القصر العثماني الحاكم، ووصل به الحال أن عرض عليه منصب وزير المعارف العثمانية، فرفض، وعندما عين سفيرا للدولة العثمانية في هولندا، رفض، وطلب من القصر تعيينه في لندن، فعين سفيرا لبلاده هناك.

وعندما حدث انقلاب الضباط ضد الحكم العثماني، وأطاحوا بالسلطان، عبد الحميد الثاني، عرض عليه الثوار الوزارة فرفضها. وأحيل إلى التقاعد عام ١٩١٢ م، فعينته الحكومة عضوا في مجلس الأعيان.

وعندما انهارت الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، واحتل الإنجليز عاصمتها إستانبول، وخوفا من بطش الإنجليز به لأنه كان دائم الهجوم عليهم في أعماله الأدبية التي صور فيها بشاعة ما فعلوه بمستعمراتهم، ترك بلاده وسافر إلى فيينا، وهناك ذاق شظف العيش، وسرعان ما أعادته – حكومة أنقرة إلى تركيا لمكانته.

وبعد انتصار الترك على جحافل جيوش التحالف الدولي ضدهم، أسرعت الحكومة بتكريم عبد الحق حامد، وتم تعيينه عضوا بمجلس الأمة التركي (١٩٢٨ م).

◁ أدب عبد الحق حامد

عبد الحق حامد بك من أكبر الشخصيات الأدبية والفكرية في عهد ما يسمى بأدب التنظيمات، ويعني الأدب التركي الذي تخلص من جلده القديم واتجه إلى الجديد تحت تأثير الآداب الغربية، بمعنى آخر الأدب التركي الحديث.

وقد ظهرت في سماء هذا الأدب التجديدي أسماء شعراء وأدباء وروائيين أتراك مثل نامق كمال وضيا باشا وشناس.

من سبق عبد الحق وعاصره نادوا بأن الأدب من أجل المجتمع والمنفعة، وقد رافقهم الشاعر الأعظم في هذا لكنه أضاف أن الأدب يمكن أن يكون من أجل الأدب أيضا.

كان عبد الحق حامد شاعرا وفنانا قديرا، لأنه فاق كل معاصريه في مفهومه للفن. نظم الشعر على النمط الأدبي التركي القديم من «القصيدة » و « الغزل » وهما نوعان أدبيان كلاسيكيان، لكنه نظم القديم شكلا، الجديد روحا وجوهرا.

اهتم هذا الشاعر العظيم في أعماله الأدبية بمسائل بلاده وأمته وتطلعها إلى الحرية – كما اهتم بالتعبير عن ألم الشعوب المقهورة تحت وطأة الاستعمار مثلما سجل معاناة الشعب الهندي من صنيع الاحتلال البريطاني.

وفي الحقيقة خالف من سبقه من شعراء الترك الذين عبروا عن الطبيعة التي في الإنسان، فاهتم هو بالإنسان الذي في الطبيعة « وجعل من الإنسان متمما للطبيعة والطبيعة متممة للإنسان في التعبير الأدبي.

وهو أكثر شعراء الترك المحدثين اهتماما بالفكر وبالفلسفة في نظمه، وكما قال بعض النقاد الأتراك فيه: أخضع عبد الخالق حامد الشعر للفكرة أو فلنقل أخضع الفكرة للشعر، ويمكن قول هذا أيضا فيما كتبه من نثر: إنه أكثر شعراء الأدب التركي الحديث تجديدا.

كما يمكن القول: إنه تأثر تأثرا واضحا بما أطلع عليه من الأدب الفرنسي والإنجليزي، فإننا نجد في فنه تأثيرات كورني وشكسبير.

ويمكن القول أيضا في خروجه التعبيري من إطار الوطن المحدود، فليس كل أبطال شعره أو نثره أتراكا، وإنما نجد أبطال أعماله الأدبية من هنا وهناك يعني من عرب وعجم وأفغان وهنود.

منظومات الشاعر الأعظم لدى الأتـراك تتسم عموما بالطول بل أحيانا تصل المنظومة الواحدة في شعره إلى أن تكون كتابا مستقلا، مثل منظومته مقبر التي كتبها في رثاء زوجته فاطمة أو قصيدته غرام.

وعندما فقد بعض النقاد الأتراك مسرح عبد الحق حامد، ما كان منه إلا أن قال: لم أكتب مسرحياتي لكي تمثل في المسرح، وإنما كتبتها لكي تقرأ فقط.

ومسرحيات عبد الحق حامد تبلغ نصف أعماله عددا، فله أربعون عملا أدبيا تكون المسرحيات فيه نصف إنتاجه الأدبي، ومسرحه ينقسم إلى ثلاثة أنـواع: المسرحيات المنظومة والمسرحيات النثرية والمسرحيات التي فيها هذا وذاك.

ونثره قوي مشحون بالشعرية والتفكير. ومن مسرحياته النثرية «الصبر والثبات» و«دختري هندو» و«الفتاة الهندية» و«طارق» أو « فتح الأندلس »، وقد ترجمها إلى العربية الأستاذ إبراهيم صبري بك أستاذ الأدب التركي في جامعة الإسكندرية سابقا - عليه رحمة الله - وكذلك مسرحية ابن موسى أو ذات الجمال التي ترجمها أيضا إلى العربية إبراهيم صبري بك، وظهر في مشروع الألف كتاب. وباختصار نستطيع ترديد ما قاله الدكتور حسين مجيب المصري في هذا الشاعر الأعظم:

عبد الحق حامد شاعر موهوب يمتاز بحرية الفكرة وسموها وهو الـذي خلق الشعر التركي الحديث خلقا وعرف كيف يحافظ على روحه القومية.

◁ الشخصية العربية في أدب شاعر الأتراك الأعظم

كان شاعر الترك الأعظم عبد الحق حامد معجبا بالعرب إعجابا شديدا ملك عليه شغاف قلبه، فعبر عن هـذا الإعـجـاب فـي مسرحيات عديدة له ، و في قصائد كثيرة. وفي مسرحياته بالذات، طارق وابن موسى و«تزر » بمعنى القيصر، ويقصد به عبد الرحمن الثالث وغيرها.

ينبغي القول هنا أيضا إنه ليس شـاعـر الـتـرك الأعـظـم عبـد الحق حامد ، فقط هو الذي يحب العرب ويدعو لاتخاذهم مثالا في الشخصية والخلق وإنما كان أدباء الترك كلهم قبله يشيدون بالعرب وبحب العرب مثل فضولي أمـيـر الـشـعـر التركي القديم، والشيخ غالب، ومعلم ناجي وغيرهم من أساطين الأدب التركي قديمه وحديثه.

ويمكن استخلاص بعض صفات العربي في أدب عبد الحق حامد بك على أساس أن العربي يتميز بالصدق وبالثبات ، وبالنشاط والمهابة في الحـرب ، والـهـدوء فـي السلم ، وإن العربي شخصية سامية ويكرم العزيز إذا ذل، والعربي في أدب عبد الحق حامد يعمر ولا يخرب. يشيد ولا يهدم، لا يـأخـذ بالظنة ويفضل المصلحة العـامـة على مصلحته الشخصية. وإن العـربـي لا يخطب على خطبة أخيه، وإن الحكمة تجري على لسان العربي، والعربي في رؤية عبد الحق حامد التركي: عفيف عـادل ، يربي أولاده على ركوب الصعاب ، وحفظ الشعر ، والاعتياد على مشاق السفر ، وتلاوة القرآن الكريم ، والفروسية، والصيام.

يصور الشاعر التركي الأعظم العربي على أنه محارب شجاع قوي يحرص على إظهار قوة الحق، في فتوحاتهم يهدفون إلى نشر التسامح في أوروبـا. وإن العربي لا يعني من الحـرب إلا إعـلان العدل والإحسان ونشر المساواة بين الأمم، وإن العربي في فتوحاته وفي حروبه يهدف إلى ضمان السلم والصلاح.

والعربي في رؤية شاعر الأتراك الأعظم مثال فـي الـثـبـات ، شجاع في الزحف ، والعربي في حروبه لا يتعقب عدوه المنهزم الهارب. والعربي يحترم جثث أعدائه القتلى ، وهو في انتصاره يتجنب النهب والظلم والتخريب والقتل، ويعامل أسيره معاملة كريمة، والعربي غني النفس - لا يتسلط على أمـوال أحـد، ولا يعتدي على حقوق أحد ، ولا يعترض لعرض أحد.

والحاكم العربي - في رؤية شاعر الأتراك الأعظم مسؤول عن العدالة في الأقاليم المفتوحة وتعاليمه لجنوده أن الأساس في الدولة العربية نشر العـدل. ويـرى عبد الحـق حـامـد أن العدالة العربية تمثلت في الأندلس بين أهالي طليطلة عندما استسلموا للجيوش العربية ولم يعاملهم العرب معاملة الأسرى، فأبقوا الكنائس على

حالتها باعتبار أن الناس أحرار في إقامة طقوس دينهم.

حالة العربي هذه كما صورها الشاعر التركي الأعظم عبد الحق حامد و ظهرت جليا في مسرحيته (طارق) أو (فتح الأندلس).

أما في مسرحيته (ابن موسى) أو ذات الجمال فيصور عبد الحق حامد العربي على أن بغيته في الحرب « إقامة المساواة بين الأمم» وأن هدف الإسلام إقامة الأخوة بين أفراد الإنسانية. وأن العرب يرمون منذ قرون إلى هذا الهدف، ويهدفون إلى تحرير البشرية ، وأن هناك إرهاصا بفجر السلام القادم.

الحاكم العربي ، في رؤية الشاعر التركي ، يحب إجماع الأمة للبت في كل أمر مهم.

وكما قال الخليفة الوليد في مسرحيته: «هذه إذا رأت أغلبيتكم ذلك فرأيي مع الجماعة».

ويعقد عبد الحق حامد مقارنة بين الحاكم العربي والآخر فيقول: «وبينما كان الخليفة الوليد يفكر وهو في بلدته البعيدة في إعمار هذه المملكة - أي الأندلس و كان الملك رودوريق يعمل على خرابها « .

وعلى لسان مروان بن موسى يقول الشاعر التركي الأعظم: « تزهق العداوة وتجني المحبة » هذه الأمنية نرمي نحن إلى تحقيقها لأن الإسلام يرمي إلى وحدة الأقوام ونحن نعمل على هذه الوحدة.

وعن كرم العرب وحسن ضيافتهم يقول الشاعر على لسان بعض الأمراء العرب: « نحن العرب ليس من خلقنا التقصير نحو ضيوفنا».

ومن خلق العربي وتفضيله أمته على عاطفته الشخصية ، ينظم عبد الحق حامد قصيدة على لسان عبد العزيز بن موسى ، كما ترجمها إبراهيم صبري بك:

أنا العربي دليل شعبي فيما عزم
وطني عليه
أنا مناط أمل المجاهدين فيما
عزموا على فتحه
فهل أتجرد من حميتي من أجل
هوى وصال الحبيبة؟
أنا الذي صرت ملاذا لمجاهدي
أمتي
أنا الجندي الذي عطشت شفتاه
إلى تقبيل ماء لمعان السيف
هل تصيب سهام نظرة الفاتنة
قلبي؟

وفي الحوار الذي أجراه شاعر الترك الأعظم على لسان العربي وأسيره في الحرب يقول:

عبدالعزيز بن موسى: ستظل عندنا آمنا وسالما يا كونت تادمير.

تادمير: لن أبقى أبدا أسيرا أيها الأمير ابن موسى.

عبدالعزيز بن موسى: ولكنك لن تكون أسيرا بل سوف تكون أميرا.

ثم يجري عبدالحق حامد كلمات على لسان الأمير تادمير، الذي وقع أسيرا في يد العرب فأكرموه وآعزوه، وهذه الكلمات التي تفصح عن إعجاب الشاعر التركي بالعربي عندما يستنطق الشاعر الكونت تادمير بقوله:

الكونت تادمير: لو لم أكن أسبانيا لكنت عربيا، ليتني ولدت عربيا لأجعل أسبانيا بلادا عربية حتما.

وفي المنظر الثاني والعشرين من مسرحية عبدالحق حامد يصور إشبيلية وينشد الجميع من أسبان وعرب:

أيها العربي، ياعبدالعزيز، يا ابن موسى
إنك جدير باحترامنا، والرعية أحرار في ضمائرهم
لقد أسعدت المسلم والمسيحي بحكمتك
وزالت الفتن بفضلك
أدام الله عز دولتك
وانقضى عهد المظالم
أطل يا رب العالمين، عمر العربي عبدالعزيز بن موسى.... آمين

هذه رؤية شاعر الأتراك الأعظم عبدالحق حامد بك، وفي عرضها معنى جميل: وهو إذا كانت هذه رؤية أمير الشعراء الأتراك للعرب وللعربي فيمكن القول: إن مسرحياته التي تناولت الشخصية العربية إنما هي» مسرحيات حب العرب» وضعها عبدالحق حامد في قمة الأدب التركي وهو أدب معبر عن ضمير الشعب التركي بالضرورة(*) ■

(*) المعروف أن كلمة (العربي) مرادف لكلمة (المسلم) في آداب الشعوب الإسلامية، وفي كتابات غير المسلمين، وخصوصا في الحديث عن التاريخ الإسلامي القديم.

(التحرير)